تخليد ذكرى الدكتور شميل

قلما شهد فضلاء القاهرة احتفالاً رابطاً للقلوب بين الناطقين بالضاد كالاحتفال الذي اقيم في نادي الاتحاد السوري في التاسع من فبراير لتخليد ذكرى نقيد العلم والفضل الدكتور شميل فقد ضمَّ جمٌّ غفيراً من نخبة العلماء والادباء والفضلاء رجالاً ونساء برآسة صاحب السعادة احمد حشمت باشا وزير المعارف سابقاً فافتتح حضرتهُ الاحتفال بخطبة وجيزة اللفظ كبيرة المعنى وصف بها الراحل الكريم احسن وصف فقال انهُ ما كاد يستقر بهِ المقام في القاهرة حتى تمَّ عليهِ فضل كبير وعلم غزير وافكار تسبح في حرية لم تكن فينا ولا في الشرق لذلك العهد وعرفت مصر بعد هذا ان الوافد عليها لم يكن كغيرهِ من التازحين اليها إنْ هو الاَّ رسول من رسل العلم والعرفان جاء ليضيءَ الاذهان كما تضيءُ شمس النهار ما حولها من الاجرام الى ان قال « ان المرحوم الدكتور شبلي شميل قام بدور محمود في تاريخ العلم والفلسفة والشجاعة الادبيَّة في الشرق عامة ومصرنا خاصَّة وكفاهُ فخراً وذكراً جميلاً خالداً ان يقال عنهُ انهُ قام بالواجب والقيام بالواجب خير ما يتحلَّى بهِ تاريخ المرء في هذه الحياة »

وتلاهُ كاتب هذه السطور فقال « ان الموضوع واسع الرحاب بعيد الغور ولكن فقيدنا الذي اجتمعنا لنذكر مناقبهُ ومآثرهُ — فقيدنا الذي ترك بيننا فراغاً هيهات ان يتسنَّى ملؤهُ ولو بعد اعوام طوال — فقيدنا الذي وقفت لذكر آثارهِ العلية ليس غريباً عنكم ولا بكم حاجة الى مَن يصفهُ لكم ويبيِّن مبلغ علمهِ . بل ليس في كل البلدان التي تُقرأُ فيها العربية من يجهل الدكتور شميل او مَن لم يقف على نفثات قلمهِ . كيف لا وقد تصدَّر لبحث في المواضيع الطبيعية والاجتماعية اكثر من اربعين عاماً وكان يجلو عرائس افكارهِ على صفحات الجرائد والمجلاَّت فتسير بها في مشارق الارض ومغاربها . وهو غنيٌّ عن التعريف بما اشتهر من آرائهِ الفلسفية وحملاتهِ السياسية كما انهُ غنيٌّ عن الوصف بعلومهِ الطبيَّة والطبيعيَّة والاجتماعية . فما كلامي عنهُ امامكم الآن الاَّ من باب الاشارة الى مواهبهِ السامية وآثارهِ الخالدة اظهاراً لخسارتنا فيهِ وحزننا عليهِ »

ثم استطرد الى وصف عزمهِ بما لا يخرج عن مضمون المقالة المدرجة عنهُ في هذا الجزء

وقام بعدهُ حضرة السيد رشيد رضا صاحب المنار فتكلم على اخلاق الفقيد وما اشتهر بهِ من الشجاعة الادبية واستقلال الفكر والذود عن المستضعفين وسائر مناقبهِ الفاضلة التي

ترضي المخلوق والخالق فكان لكلامه احسن وقع في النفوس لانهُ من ائمة الدين الذين لا يشهدون الاَّ بما يعلمون عن اليقين

وتلاهُ حضرة الدكتور كحيل وتكلم بالفرنسوية عن الفقيد كطبيب وذكر التقدم العظيم الذي تقدمهُ عن الطب في عصره وكيف انهُ جاراهُ في تقدمه هذا في معالجة مرضاهُ وفيما كان يبشره في مجلة الشفاء وذهب الى براين للوقوف على اكتشاف كوخ في معهده. وسنتوخى ترجمة هذه الخطبة المفيدة ونشرها في المقتطف لانها جمعت فاوعت

ثم قام شاب فصيح اللفظ بليغ المعنى وهو حسن بك شريف فالقى خطبة نفيسة جمعت خلاصة ما كتبهُ الدكتور شميل في المواضيع الاجتماعية مشيراً الى الدواعي التي دعت اليها على اسلوب يخلب العقول بحسن دبباجته ووضوح ادلته فطرب الحضور لسماع الخطبة ولو سُمح لهم لاظهروا اعجابهم بها بالتصفيق لها مراراً

وعقبهُ حضرة الشاب الذكي الفؤاد اميل افندي زيدان نجل الطيب الذكر المرحوم جرجي بك زيدان صاحب الهلال فذكر نسبة الفقيد الى الناشئة وكيف انهُ بقي حتى ادركتهُ الوفاة شاباً في علو همته ومضاء عزيمته وانس محضره وكيف انهُ كان قدوة للشبان في حب الفضيلة والدفاع عن الحق . فاحسن غاية الاحسان . وتلاهُ حضرة الخطيب البليغ انطون افندي الجميل فاشار الى رجاحة عقل الفقيد وفرط ذكائه وما كان عليه من دقة العواطف وصفاء النية . وذكر بعض نوادره الدالة على شدة عطفه وانس محضره . ثم التى حضرة الشاعر الشهير حافظ بك ابرهيم المرثاة التالية فكان لها اعظم وقع في نفوس السامعين فاستعادوهُ اكثر ابياتها مراراً واخيراً وقف حضرة رصيفنا رشيد بك شميل صاحب جريدة البصير ابن اخي الفقيد وتكلم نائباً عن آل شميل شاكراً للذين قاموا بهذا الاحتفال

قصيدة حافظ بك ابرهيم

مكن الفيلسوف بعد اضطرابٍ ... ان ذاك السكون فصل الخطابِ

لقي الله ربهُ فاتركوا المر ... ء لديَّانهِ فسيح الرحاب

حزن العلم يوم متَّ ولكن ... أمن الدين صيحة الارتياب

كنت تبغي برد اليقين على الار ... ض وتسمى وراءه اب اللباب

فاستريح ايها المجاهد واهدأ ... قد بلغت المراد تحت التراب

وعرفت اليقين وابلج الحـ ـق لعينيك ساطعاً كالشهاب
ليت شعري وقد قضيت حياة بين شك وحيرة وارتياب
هل اتاك اليقين من طرق الشكّ — فشكُّ الحكيم بدء الصواب
كم سمعنا مسائلاً قبل شبلي عاش في البحث طارقاً كل باب
أطلق الفكر في العوالم حرّ مستطيراً يريغ هتك الحجاب
يقرع النجم سائلاً ثم يرتدّ — الى الارض باحثاً عن جواب
أعجزتهُ من قدرة الله اسبا ب طواها بسبب الاسباب
وقفت دونها العقول حيارى واثنى مجزيها وهو كابي
لم يكن ملحداً ولكن تصدى لشؤون المهيمن الوهاب
رام ادراك كنه ما اعجز النا س قديماً فلم يفز بالطلاب

***

ايه شبلي لقد اكثر الناس نبك الا قول حتى تفننوا في عتابي
قيل تقفي ذاك الذي ينكر النو ر ولا يهتدي بهدي الكتاب
قلت كفّوا فانما قمت ارثي منهُ خلاً امسى طويل الغياب
انا والله لا احابيه في القو ل فقد كان صاحبي لا يحابي
انا ارثي شمائلاً منهُ عندي كنّ احلى من الشهاد المذاب
كان حرّ الآراء لا يعرف الخت ل ولا يستبيح غيب الصحاب
مفضل محسن على العسر واليسر — جميع الفؤاد رحب الجناب
عاش ما عاش لا يُليق على الا — يام مالاً ولم يلن للصعاب
كان في الرد موضع الثقة الكبر — ى وفي العلم موضع الاعجاب
نكب الطب فيه يوم توفا وأصيبت روائع الآداب
وخلا ذلك الندي من الانس — وقد كان مرتع الكتاب
وبكت فقدهُ الشآم ونادت فوق ما نابها بهذا المصاب
كل يوم يهدُّ ركن من الشا م لقد ذقت آداً يا غراب
فعي باليازجي وجورجي وشبلي فجعت بالثلاثة الاقطاب
فعلى الراحل الكريم سلام كلما غيَّب الثرى ليث غاب